الإرواء

بشرح حديث من عادى الأولياء

كتبه

د. هشام عبد الجواد الزهيري

راجعه د. ياسر برهامي







رقم الإيداع	٢٤٢٢٣ / ٢٠٠٦

دار الخلفاء الراشدين
ج.م.ع - الإسكندرية
ش منشية الزهراء - أبو سليمان - حي الرمل
٠١٠٦٧١٤٧٦٨/٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٧٣٨٢٧٨٢

الشركة الفنية للطباعة
ت: ٧٧٧١٠٣٩

مُقـدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه تسليماً.

ثم أما بعد،،،

فقد قرأ عليّ أخونا الكريم د/ **هشام عبد الجواد** كتابه «**الإرواء بشرح حديث من عادى الأولياء**» فوجدته شرحاً موافقاً لأهل السنة ولم أجد فيه مخالفةً لطريقتهم ،

أسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره..

كتبه

د/ ياسر برهامي



الإرواء بشرح حديث من عادى الأولياء

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن اللهَ تعالى قالَ: مَنْ عادَى لي وَلِيّاً فقد آذَنْتُه بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترَضْتُه عليه، وما يزالُ عبدي يتقرّبُ إليّ بالنوافِلِ حتى أحبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبْصِرُ به، ويدَه التي يبطِشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألَني لأُعْطِيَنَّه، ولئن عاذَ بي لأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعلُه تَرَدُّدي عن قَبْض نفْسِ عبدي المؤمنِ، يَكْرَهُ الموتَ، وأنا أكرَهُ مساءَتَه**» رواه البخاري في صحيحه. وهو حديث جليل القدر وعظيم النفع.

قال ابن حجر: وهو من الأحاديث القدسية، وقد وقع في بعض الطرق أن النبي ﷺ حدث به عن جبريل عن الله - عز وجل - وذلك في حديث أنس رضي الله عنه.

قوله في الحديث: «**إن الله تعالى قال**» يفيد جلالة قدر هذا الكلام وعظم شأنه فلو قال الرسول ﷺ: «من عادى لله ولياً فقد آذنه الله بالحرب» لكفى، ولكن لما ذكر أن الرب قال هذا بنفسه دل على تأكد صدقه وعظم شأنه.

قوله في الحديث : «**من عادى**» يدل على شدة حرمة الولي إذ جزاء من عاداه محاربة الله له فكيف بمن قتل الولي مثلاً؟! ففي هذا تصبير للمؤمنين والدعاة إذا رأوا ما يحدث بالمؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها من قتل وتعذيب فهذا بعين الله وهو سبحانه يغضب لهم وسيثأر لهم ممن عاداهم وظلمهم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

قال ابن حجر: «وقد استشكل البعض وجود أحد يعاديه الولي لأن لفظ «**عادى**» يدل على وقوع العداوة من الجانبين، ومن شأن الولي الحلم والصفح عمن يجهل عليه، وأجيب بأن المعاداة لم تنحصر في الخصومة والمعاملة الدنيوية مثلاً، بل قد تقع عن بغض ينشأ بين الولي وعدوه كالرافضي يبغض أبا بكر والمبتدع يبغض السني فتقع المعاداة بين الجانبين، أما من جانب الولي فلله تعالى وفي الله، وأما من جانب الآخر فبسبب بدعته، وكذا الفاسق المتجاهر يبغضه الولي في الله، ويبغض هو الولي لإنكاره عليه وملازمته لنهيه عن شهواته، وقد تطلق

المعاداة ويراد بها الوقوع من أحد الجانبين بالفعل ومن الآخر بالقوة»، انتهى كلامه رحمه الله.

قوله في الحديث: «**لي ولياً**» ولم يقل «ولياً لله» يدل على أن هذا التهديد العظيم إنما هو لمن عادى الولي لكونه ولياً لله، وليس لمن عاداه لمخاصمة بينهما على حق مالي وغيره أو لسوء فهم وغيره، فقد عادى معاوية علياً ظناً منه أن علياً قد قصر في القصاص من قتلة عثمان ولا يدخل معاوية تحت طائل هذا التهديد مع أن علياً من سادات الأولياء وذلك لأن المعاداة كانت بتأويل.

قوله في الحديث: «**ولياً**» المراد منه هنا الولي الكامل في ولايته لقوله في الحديث: «**ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل**» فدل على أنه التزم الفرائض والنوافل معاً.

قال شيخ الإسلام: «لا يكون العبد ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ولا يكون مؤمناً تقياً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين».

وقال في موضع آخر: وأولياء الله تعالى على نوعين:

مقربون، وأصحاب يمين، فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إلى الله بفعل ما أوجب الله عليهم وترك ما حرم الله عليهم ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ولا الكف عن فضول المباحات، وأما السابقون المقربون فتقربوا إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وتقربوا إلى الله بجميع ما يقدرون عليه من محبوباته فأحبهم الرب حباً تاماً كما في الحديث: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**» أي الحب المطلق فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات، يتقربون بها إلى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات فيشربون من تسنيم صرفاً كما عملوا لله صرفاً والمقتصدون كان في شرابهم مزج بحسب ما مزجوه في الدنيا قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ۝ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ ﴾ وعن ابن عباس وغيره من

السلف قالوا: «يمزج لأصحاب اليمين مزجاً ويشرب بها المقربون صرفاً».

تنبيه:

يتفاوت الناس في ولايتهم لله على حسب ما عندهم من إيمان وتقوى فمن زاد إيمانه وتقواه كان أقرب من الله ومحبته، والعكس كذلك فمن كان عنده أصل الإيمان والتقوى كانت له نوع ولاية لله على حسب ما عنده من إيمان ولو غلبت سيئاته على حسناته وكان ظالماً لنفسه لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فجعل الظالم لنفسه من المصطفين.

وقد قال تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فهم وإن كانوا ظالمين لأنفسهم يستحقون دخول النار إلا أنهم سالمون من الخلود في النار وذلك لأنهم كانوا على التوحيد، فمن عادى ولياً لله كاملاً في ولايته كانت محاربة الله له أعظم، ومن عادى مسلماً عاصياً من أجل إسلامه كان له نصيبه من محاربة الله له على قدر ما عند هذا المسلم من إيمان وتقوى.

قوله في الحديث: «**فقد آذنته بالحرب**» فيه تهديد عظيم لمن عادى أولياء الله وآذاهم، إذ قد عرّض نفسه بهذا لمحاربة الله له، ومن يطيق محاربة الله؟! فلو أن أعداء الدعوة والدعاة تأملوا هذا الحديث ما أطاقوا الحياة لحظة واحدة وهم تحت طائل هذا التهديد ولكنها الغفلة التي أعمت القلوب وأغشت الأبصار.

- وفيه كذلك طمأنة لقلوب المؤمنين بأن الله سينتقم لهم وينتصر لهم من أعدائهم وإن كانوا قلة مستضعفين وأعداؤهم كثرة ممكنين، فالله مع المؤمنين، ومن كان الله معه كانت معه الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادي الذي لا يَضل، وإلا فهل يستطيع أعداء المؤمنين مهما بلغت قوتهم محاربة القوى العزيز؟؟ ولا يشترط أن يقع انتقام الله لوليه في الدنيا فربما وقع في الآخرة وربما كان الانتقام بإفساد دين من حارب الولي، وهذا أعظم المصائب إذ الدين لا تنجبر مصيبته بعكس مصائب الدنيا.

- وفيه كذلك تهديد لمن عادى ولى الله بحبوط عمله، إذ محاربة الله له تقتضي ذلك، فقد قالت عائشة لأم ولد زيد بن أرقم: «أخبريه أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله إلا أن يتوب»

وذلك لمّا عامل أم ولده ببيع العينة ظناً منه جوازه، فلما كان بيع العينة تحايلاً على الربا صار كالربا، وقد قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فاستدلت عائشة ﵂ من الآية على بطلان عمل المرابي لمحاربة الله له، فكذلك نقول: من عادى ولي الله حاربه الله وأحبط عمله كالمرابي.

- وفيه كذلك تهديد وتحذير لرؤوساء الشركات والهيئات الذين يرفضون قبول الأكفاء إذا كانوا ملتزمين، بل زاد جرم بعضهم حتى طردوا الملتزمين من أعمالهم وضيقوا عليهم بسب التزامهم، وهذا في الحقيقة معاداة لله ورسوله.

قال ابن حجر: «وقع في حديث عائشة: «**من عادى لي ولياً**» وفي رواية لأحمد: «**من آذى لي ولياً**» وفي أخرى له: «**من آذى**» وفي حديث ميمونة مثله: «**فقد استحل محاربتي**» وفي رواية ابن منبه موقوفاً: «**قال اللهُ: مَنْ أهانَ وَلِيِّي المؤمنَ فقد استقْبَلَني بالمحاربةِ**» وفي حديث معاذ: «**بارزَ اللهَ بالمحاربة**» وفي حديث أبي أمامه: «**فقد بارزني**» وقد استشكل وقوع المحاربة وهي مفاعلة من الجانبين مع أن المخلوق في أسر

الخالق، والجواب أنه من المخاطبة بما يفهم، فإن الحرب تنشأ عن العداوة والعداوة تنشأ عن المخالفة، وغاية الحرب الهلاك والله لا يغلبه العدو المحارب، قال الفاكهاني: في هذا تهديد، لأن من حاربه الله أهلكه، وهو من المجاز البليغ، لأن من كره من أحب الله خالف الله ومن خالف الله عانده ومن عانده أهلكه، وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب الموالاة، فمن والى أولياء الله أكرمه الله، وقال الطوفي: لما كان ولي الله من تولى الله بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأن عدوَّ الصَّدِيق عدوٌ وصديقَ العدوِ عدوٌّ، فعدو ولي الله عدو الله، فمن عاداه كان كمن حاربه ومن حاربه فكأنما حارب الله». انتهى كلامه رحمه الله.

قوله في الحديث: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إلي مما افترضتُه عليه**» دليل على أن ثواب أداء الفرض أعظم من ثواب أداء النفل، فيستدل به على عظم ثواب صلاة الصبح، ففي الحديث: «**رَكْعَتا الفجْرِ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها**» وركعتا الفجر هما النافلة وهذا ثوابها فكيف بثواب صلاة الصبح وهي الفريضة؟!

- وفيه دليل كذلك لصحة **قول الحسن البصري**: «ألزِموا أنفسَكم بالفرائض فإن استقامت عليها فألزومها بالنوافل».

- وفيه كذلك الرد على بعض الجهلة الذين يهتمون بالنوافل ويتركون الفرائض، كهؤلاء الذين يكثرون من الصدقات ولا يؤدون زكاة المال في حَوْلِها بنِصابها، وكهؤلاء الذين يعتمرون ويحجون أكثر من مرة ويسرقون أموال الناس ويرتشون ويظنون عمرتهم أوحجتهم نافعتهم مع كونها بالمال الحرام.

قوله في الحديث: «أحب» يدل على تفاوت محبة الله للذوات والصفات والأفعال.

تنبيه:

يدل هذا الحديث على أن الفرض أفضل عند الله من النفل، وهذا هو الأصل إلا أن هناك نوافل فضلها أعظم عند الله من الفرض قد دل عليها الدليل، فقد أجمعوا على أن الوضوء قبل الأذان أفضل منه بعد الأذان مع أن الوضوء قبل الوقت نفل وبعده فرض، وأجمعوا كذلك على أن إلقاء السلام أفضل من رده مع أن إلقاءه نفل ورده فرض، وكذلك الرضا أفضل من الصبر مع أن الصبر فرض والرضا نفل.

قوله في الحديث: **«وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل»** يدل على أن العبد لا يصل إلى درجة محبة الله حتى يداوم على النوافل وليس بمجرد فعلها يصل إلى هذه الدرجة، ولذا قال: **«وما يزال»**.

قوله في الحديث: **«يتقرب إليّ»** ولم يقل «يفعل»، يدل على أن العبد لا يصل إلى أن يحبه الله حتى يكون مخلصاً في عمله ناوياً به التقرب إلى الله وليس بمجرد فعله ولو كان مراءياً معجباً يصل إلى هذه الدرجة.

قوله في الحديث: **«يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»** فيه دليل على أنه كلما أكثر المرء من النوافل أحبه الله أكثر، ففيه حث على طلب العلم، إذ أعلم الناس بالسنن العلماء والفقهاء وكم من سُنة يعلمها العلماء دون العباد.

- وفيه دليل كذلك على أن الله لا يحب العبد لذاته حتى يداوم على النوافل، فقبْلَ فعلِه للنوافل كان الله يحب أفعاله في الطاعة وصفاته الطيبة كالتقوى والإيمان ولكن لا يحبه الله من كل وجه حتى يداوم على النوافل مع الفرائض، ولذلك هو دليل على بطلان قول الأشاعرة إن الله لم يزل يحب عمر حتى

وهو كافر لعلمه بأنه سيؤمن، ولم يزل يكره إبليس حتى وهو طائع لعلمه بأنه سيكفر، واستدلوا بقول النبي ﷺ: «**اللهم اهدِ أحبَّ العُمَرَيْنَ إليك**» فهذا الحديث الذي بين أيدينا يرد عليهم ويبطل كلامهم، إذ يدل على أن الله لا يحب المسلم حتى يكتمل إيمانه، فكيف يحب الكافر؟ وأما قول النبي ﷺ: «**اللهم اهدِ أحبَّ العُمَرَيْنَ إليك**» فهو لو صح محمول على من يحب الله إسلامه أكثر، فالله أحب إسلام عمر بن الخطاب أكثر من الآخر، فهدى الله عمر بن الخطاب دون الآخر لا أنه أحب عمر قبل إسلامه.

- وفيه كذلك رد على الصوفية الذين ظنوا أن ولاية الله ومحبته تنال بغير طاعة الله واكتفوا بمحبة المقبورين والطواف بقبورهم والاستغاثة بهم ظناً منهم أن هذه المحبة الكاذبة تدخلهم الجنة، فالحديث يبطل أمانِيَّهم إذ يدل على أن محبة الله لا تنال بغير فعل الفرائض والنوافل.

- وفيه كذلك رد على كثير من الجهلة والعوام الذين إذا رأَوْا مجنوناً قالوا: هو ولي لله، وربما قالوا له: يا شيخ فلان، فهذا الحديث يرد عليهم إذ ما نال أحد الولاية إلا بعمل يتقرب

به إلى الله ، والمجنون لا نِيَّةَ له ولا يصح منه عمل ، والله لا يختار لمحبته وولايته إلا الكُمَّلَ ، والجنون نقص ولذلك نزه الله الأنبياء عنه ، بعكس النوم والإغماء فإنه يجوز عليهم.

قال شيخ الإسلام: «من ليس بمكلف من الأطفال والمجانين قد رفع عنهم القلم فلا يعاقبون وليس لهم من التقوى والإيمان باطناً وظاهراً ما يكونون به من أولياء الله المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين، لكن يدخلون في الإسلام تبعاً لآبائهم ولكن لا يصح شيء من عباداتهم لا فرائضهم ولا نوافلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي العقول وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وقال: ﴿ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي يا أولي العقول، فإنما مدح الله من كان له عقل وأثنى عليه ، فأما من لا يعقل فإن الله لم يحمده ولم يُثْنِ عليه ولم يذكره بخير قط ، بل قال تعالى عن أهل النار: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فمن لا عقل له لا يصح إيمانه ولا فرضه ولا نفله، فمن كان يهودياً أو نصرانياً ثم جن وأسلم في جنونه لم يصح إسلامه ظاهراً ولا باطناً ، ومن كان قد آمن ثم كفر وجن بعد

ذلك فحكمه حكم الكفار، ومن كان مؤمناً ثم جن بعد ذلك أثيب على إيمانه الذي كان منه في حال عقله، ومن ولد مجنوناً ثم استمر جنونه لم يصح منه إيمان ولا كفر وكان حكمه كالطفل فإذا كان لأبوين مسلمين كان مسلماً بالاتفاق، وكذلك إذا كانت أمه مسلمة عند جمهور العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد». انتهى كلامه رحمه الله.

وقال أيضاً في موضع آخر: «وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون ولياً لله فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله، لاسيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع، فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً لله وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله؟؟ مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطناً أو ظاهراً، بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة أو

يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام، فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خَرْق عادة على ولايتهم كان أضلَّ من اليهود والنصارى، وكذلك المجنون فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي شرط في ولاية الله، ومن كان يجن أحياناً ويفيق أحياناً إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ويؤدي الفرائض ويجتنب المحارم، فهذا إذا جن لم يكن جنونه مانعاً من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه التي أتى بها حال إفاقته، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك، وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه، فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلي به من غير ذنب فعله، وأما إن كان غياب عقله بسبب محرم كأن يحضر السماع الملحن حتى يغيب عقله، أو كالذي يتعبد بعبادات بدعية حتى يقترن به بعض الشياطين فيغيروا عقله فهؤلاء يستحقون الذم والعقاب على ما أزالوا به العقول، ويكثر من هؤلاء من يستجلب الحال الشيطاني بأن يفعل ما يحبه الشيطان فيرقص رقصاً عظيماً حتى يغيب عقله أو يغط ويخور حتى يجيأه الحال الشيطاني، وكثير من هؤلاء يقصد التَوَلُّهَ حتى يصير مولهاً، فهؤلاء كلهم من حزب الشيطان

وهذا معروف من غير واحد منهم. ولم يقل أحد من العلماء إن هؤلاء الذين زال عقلهم بمثل هذا يكونون من أولياء الله الموحدين المقربين وحزبه المفلحين، ومن ذكره العلماء من عقلاء المجانين الذين ذكروهم بخير فهم من الذين كان فيهم خير ثم زالت عقولهم من غير سبب منهم أو بسبب مباح، ومن علامتهم أنهم إذا حصل لهم في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان لا بالكفر والبهتان، بخلاف غيرهم ممن يتكلم إذا حصل له نوع إفاقة بالكفر والشرك ويهذي في زوال عقله بالكفر فهذا إنما يكون كافراً لا مسلماً.

- فإن قيل قد وهب الله لهم عقولاً وأحوالاً فأبقى أحوالهم وأذهب عقولهم؟

قيل: قولك وهب الله لهم أحوالاً كلام مجمل، فإن الأحوال تنقسم إلى: حال رحماني وحال شيطاني، وما يكون لهؤلاء من خرق عادة بمكاشفة وتصرف عجيب فتارة يكون من جنس ما يكون للسحرة والكهان وتارة يكون من الرحمن من جنس ما يكون لأهل التقوى والإيمان، فإن كان هؤلاء في حال عقولهم كانت لهم مواهب إيمانية وكانوا من المؤمنين المتقين فلا ريب أنه إذا زالت عقولهم سقطت عنهم الفرائض

بما سلب من العقول وإن كان ما أُعْطُوه من الأحوال الشيطانية كما يعطاه المشركون وأهل الكتاب والمنافقون فهؤلاء إذا زالت عقولهم لم يخرجوا بذلك مما كانوا عليه من الكفر والفسوق كما لم يخرج الأولون عما كانوا عليه من الإيمان والتقوى». انتهى كلامه رحمه الله.

قال ابن حجر رحمه الله: «وقال الفاكهاني: معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرها أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى، وقال ابن هبيرة: يؤخذ من قوله **«ما تقرب.. إلخ»** أن النافلة لا تقدم على الفريضة، لأن النافلة إنما سميت نافلة لأنها زائدة على الفريضة فما لم تُؤَدَّ الفريضة لا تحصل النافلة، ومن أدى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام ذلك تحققت منه إرادة التقرب. انتهى كلام ابن هبيرة. وأيضاً فقد جرت العادة أن التقرب يكون غالباً بغير ما وجب على المتقرب: كالهدية والتحفة، بخلاف من يؤدي ما عليه من خراج أو يقضي ما عليه من دين، وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل جبر الفرائض، كما صح في الحديث الذي أخرجه مسلم: **«انظروا هل لعبدي من تطوُّعٍ فتُكَمَّلُ به فريضتُه»** الحديث بمعناه، فتبين أن المراد من التقرب

بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا ممّن أخل بها، كما قال بعض الأكابر: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور». انتهى كلامه رحمه الله.

قوله في الحديث: «**فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يبصِرُ به ويدَه التي يبطِشُ بها ورجلَه التي يمشي بها**».

قال الحافظ ابن حجر: وقع في حديث عائشة في رواية عبد الواحد: «**عينيه التي يبصر بهما**» بالتثنية، وفي رواية يعقوب بن مجاهد: «**عينه التي يبصر بها**» وكذا قال في الأذن واليد والرِجل، وزاد عبد الواحد في روايته: «**وفؤادَه الذي يعقِلُ به، ولسانَه الذي يتكلمُ به**» ونحوه في حديث أبي أمامة وفي حديث ميمونة: «**وقلبَه الذي يعقِلُ به**» وفي حديث أنس: «**ومن أحببتُه كنتُ له سمعًا وبصرًا ويدًا ومؤيدًا**» وقد استشكل كيف يكون الباري جل وعلا سمع العبد وبصره.. إلخ؟ والجواب من أوجه:

أحدها: أنه ورد على سبيل التمثيل، والمعنى كنت سمعه وبصره في إيثاره أمري فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي كما يحب هذه الجوارح.

ثانيها: أن المعنى: كُلِّيَّتُه مشغولة بي فلا يُصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به.

ثالثها: المعنى: أجعل له مقاصده كأنه ينالها بسمعه وبصره.. إلخ.

رابعها: كنت له في النصرة كسمعه وبصره ويده ورجله في المعاونة على عدوه.

خامسها: قال الفاكهاني وسبقه إلى معناه ابن هبيرة: هو فيما يظهر لي أنه على حذف مضاف، والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع إلا ما يحل استماعه، وحافظ بصره كذلك.. إلخ.

سادسها: قال الفاكهاني: يحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله، وهو أن يكون معنى سمعه: مسموعة، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول مثل فلان أملي بمعنى مأمولي والمعنى أنه لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذّ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي ولا يمد يده إلا إلى ما فيه رضاي ورجله كذلك، وبمعناه قال ابن هبيرة، وقال الخطابي: المعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي

يباشرها بهذه الأعضاء وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن مواقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه، ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره، ومن البطش فيما لا يحل له بيده ومن السعي إلى الباطل برجله، وإلى هذا نحا الداودي وقال بعضهم ـ وهو منتزع مما تقدم ـ لا تتحرك له جارحة إلا في الله ولله، فهي كلها تعمل بالحق للحق، وأسند البيهقي في (الزهد) عن أبي عثمان الجيزي أحد أئمة الطريق قال: معناه كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه وبصره وكنت كعينه في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي». انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وترجع الأقوال التي ذكرها ابن حجر في تفسير هذا الجزء من الحديث إلى أن الله يبارك للعبد في أعضائه مباركة معنوية فيبصر من الأدلة ما لا يبصره غيره ويستنبط من الآيات والأحاديث من الفوائد والعظات ما لا يتسنى لغيره وقد فتح الله على بعض العلماء حتى أخرجوا من الحديث الواحد عشرات الفوائد حتى بلغت المئات، وكذلك يسمعه الله من الأدلة ما لا يسمعه غيره فربما أخبر في منامه بأدلة ما وجدت في الكتب وكذلك يسمعه سبحانه من الأدلة ما يتعظ به دون غيره

فهذا سمع القلب وبصره الذي يهبه الله لمن يشاء من عباده تكرماً وتفضلاً، وكذلك يبارك الله في يده فلا تمتد إلى ما حرم الله، ويوفقه الله لكتابة العلوم الشرعية النافعة في وقت يسير، ولو أن غيره كتب ما كتبه لاستغرق زمناً أكبر، وكذلك يبارك الله في رجله فلا يمشي بها إلى الحرام بل يمشي بها في طاعة الله ومرضاته، وقد ورد في بعض الروايات لهذا الحديث: «**فبي يسْمَعُ وبي يُبْصِرُ وبي يبطِشُ وبي يمشي**» أي يحرك أعضاءه ويستغل حواسه بتوفيق الله له وإعانته، وهذه المباركة المعنوية لا تمنع وجود مباركة حسية أيضاً في هذه الأعضاء والحواس، فيبارك الله لوليه في سمعه فيسمع تسبيح الجمادات كما سمع الصحابة حَنينَ الجذع إلى رسول الله ﷺ وسمعوا تسبيح الحصى والطعام بين يدي رسول الله ﷺ وكذلك يبارك الله له في بصره فيرى الملائكة كما وقع لأُسَيْدَ بن حضير، وربما رأى الرسل والصالحين والملائكة في منامه، ويبارك الله له كذلك في يده فيفعل بها ما لا يفعله غيره، وقد رمى النبي ﷺ الحصى في وجوه الكفار يوم حُنَيْنٍ فوصل إليهم وامتن الله عليه بذلك فقال: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾، ورمى الغلام الدابة التي كانت تؤذي الناس فماتت رغم أنه رماها

بحصاة، وكذلك يبارك الله له في رجله فيمشي على الماء دون ضرر كما وقع لبعض الصحابة، وربما قطع المسافات الطوال في زمن قصير فها هو خالد بن الوليد يقطع المسافة بين العراق والشام في أربعة أيام، وقد قال ابن كثير: «ولم يقع مثل هذا لغير الصحابة رضوان الله عليهم» وغير هذا كثير مما ذكر من كرامات الأولياء.

قال شيخ الإسلام: وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً: مثل ما كان «**أسيد بن حضير**» يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين؛ وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسمعا تسبيح الصحفة أو تسبيح ما فيها.

وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما. رواه البخاري وغيره.

وقصة «**الصدّيق**» في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر

وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا.

و«**خبيب بن عدي**» كان أسيراً عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى، وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة.

وعامر بن فهيرة قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع، قال عروة: فيرون الملائكة رفعته. وخرجت «**أم أيمن**» مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة، سمعت حساً على رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رَوِيَتْ وما عطشت بقية عمرها.

و«**سفينة**» مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده.

و«**البراء بن مالك**» كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه، وكانت الحرب إذا اشتدت على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء! أقسم على ربك، فيقول: يارب! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيهزم العدو، فلما كان يوم

(القادسية) قال: أقسمت عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد، فمنحوا أكتافهم، وقتل البراء شهيداً.

و«**سعد بن أبي وقاص**» كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له، وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق.

و«**عمر بن الخطاب**» لما أرسل جيشاً أمّر عليهم رجلاً يسمى «سارية»، فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا ساريةُ الجبلَ، يا ساريةُ الجبلَ، فقدِم رسول الجيش فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا فإذا بصائح: يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله.

ولما عُذّبت «**الزنيرة**» على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام، وذهب بصرها، قال المشركون: أصاب بصرها اللات والعزى. قالت: كلا والله؛ فرد الله عليها بصرها.

ودعا «**سعيد بن زيد**» على أَرْوَى بنتِ الحكم فأعمى الله بصرها لما كذبت عليه، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعْمِ بصرها، واقتلها في أرضها، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت.

و«**العلاء بن الحضرمي**» كان عامل رسول الله ﷺ على البحرين، وكان يقول في دعائه: يا عليم! يا حليم! يا عليُّ! يا

عظيم! فيستجاب له، ودعا الله بأن يُسْقَوْا ويتوضَّؤوا لما عدموا الماء والإسقاء فأجيب، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم على الماء وما ابتلت سروج خيولهم؛ ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات؛ فلم يجدوه في اللحد.

وجرى مثل ذلك لـ «**أبي مسلم الخولاني**» الذي ألقي في النار، فإنه مَرَّ هو ومن معه من المعسكر على نهر دجلة وهي ترمي بالخشب من مَدِّها ثم التفت إلى أصحابه فقال: تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعو الله عز وجل فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة، فقال اتبعني فتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها، وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله. قال: ما أسمع، قال أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً؛ وقدم المدينة بعد موت رسول الله ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر رضي الله عنهما وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فُعل به كما فُعل بإبراهيم خليل الله. ووضعت له جارية السم في طعامه فلم يضره، وخَبَّبَتِ امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعَمِيَتْ وجاءت وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها.

وكان «**عامر بن عبد قيس**» يأخذ عطاءه ألفي درهم في كمه وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد، ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها، ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإني أستحي أن أخاف شيئاً غيره ومرت القافلة، ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء، فكان يؤتى بالماء له بخار، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه.

وتغيب «**الحسن البصري**» عن الحَجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتاً.

و«**صلة بن أشْيَمَ**» مات فرسه وهو في الغزو، فقال اللهم لا تجعل لمخلوق عليّ منّةً، ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه، فلما وصل إلى بيته قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية، فأخذ سرجه فمات الفرس، وجاع مرة بالأهواز، فدعا الله عز وجل واستطعمه، فوقعت خلفه دوخلة رُطَبٍ في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زماناً. وجاء الأسد وهو

يصلي في غيضة بالليل فلما سلم قال له: اطلب الرزق من غير هذا الموضع فولى الأسد وله زئير.

وكان «**سعيد بن المسيب**» في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله ﷺ أوقات الصلوات؛ وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره. ورجل من (النخع) كان له حمار فمات في الطريق، فقال له أصحابه: هلم نتوزع متاعك على رحالنا، فقال لهم: أمهِلوني هنيهة، ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى؛ فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه.

ولما مات «**أويسٌ القَرَني**» وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب

وكان «**عمرو بن عقبة بن فرقد**» يصلي يوماً في شدة الحر فأظلته غمامة، وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم.

وكان «**مطَرَّفُ بنُ عبد الله بن الشِخّير**» إذا دخل بيته سمع تسبيح آنيته معه، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط.

ولما مات «**الأحنف بن قيس**» وقعت قَلَنْسُوة رجل في قبره فأهوى ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر.

وكان «**إبراهيم التيمي**» يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً، وخرج يمتار لأهله طعاماً فلم يقدر عليه، فمر بسهلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء، فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً.

وكان «**عتبة الغلام**» سأل ربه ثلاث خصال: صوتاً حسناً، ودمعاً غزيراً، وطعاماً من غير تكلف. فكان إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعه جارية دهره، وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه.

وكان «**عبد الواحد بن زيد**» أصابه الفالج (أي الشلل) فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ثم تعود بعده.

تنبيهات:

١ - المباركة المعنوية أنفع للعبد من المباركة الحسية فقد يكون المرء ولياً لله ولا يرى الملائكة ولا يسمع أصواتهم ولكن عنده من الفهم والتدبر ما ليس عند غيره، فالكرامات الحسية يحتاجها الولي الأقل كمالاً، ولذا كانت الكرامات الحسية في عصر الصحابة أقل منها في عصر التابعين، وقد قال بعض السلف: «غاية الكرامة لزوم الاستقامة» فلو استقام العبد على الطاعة ووفقه الله لذلك فهذا أعظم ما يكرم الله به عبده، وقد **قال شيخ الإسلام**: «فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع، فما يبالي ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة» **وقال أيضاً** رحمه الله: «الخارق إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً إما واجب وإما مستحب وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهى تنزيه كان سبباً للعذاب أو للبغض، كقصة الذي أوتي الآيات

فانسلخ منها ولكن قد يكون صاحبها معذوراً لاجتهاد أو تقليد أو نقص علم أو عقل أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة».

وقال رحمه الله أيضاً: «وأنفع الخوارق الخارق الديني وهو حال نبينا محمد ﷺ. قال ﷺ: «**ما مِن نبيٍّ إلا وقد أُعْطِيَ مِنَ الآياتِ ما آمَنَ على مثلِه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتِيتُه وَحْياً أوحاه اللهُ إليَّ، فارجُو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامةِ**» أخرجاه في الصحيحين. وكانت آيته هي دعوته وحجته بخلاف غيره من الأنبياء. ولهذا نجد كثيراً من المنحرفين منا إلى العيسوية يفرون من القرآن والقال إلى الحال، كما أن المنحرفين منا إلى الموسوية يفرون من الإيمان والحال إلى القال، ونبينا ﷺ صاحب القال والحال، وصاحب القرآن والإيمان.

ثم بعده الخارق المؤيد للدين المعين له، لأن الخارق في مرتبة (وإياك نستعين) والدين في مرتبة (إياك نعبد)، فأما الخارق الذي لم يَعْنِ الدين: فإما متاع دنيا أو مُبْعِدٌ صاحبه عن الله ،تعالى فظهر بذلك أن الخوارق النافعة تابعة للدين حادثة له كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين وكذلك المال النافع، كما كان السلطان والمال بيد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فمن جعلها هي المقصودة وجعل غيرها تابعاً

لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل فهو يشبه بمن يأكل الدنيا بالدين وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة ؛ فإن ذلك مأمور به وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة. ولهذا لما كان الصحابة رضي الله عنهم مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات بما رأوه من حال الرسول ونالوه من علم، صار كل من كان عنهم أبعد مع صحة طريقته يحتاج إلى ما عندهم في علم دينه وعمله، فيظهر مع الأفراد في أوقات الفترات وأماكن الفترات من الخوارق ما لا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة.

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله مستغنياً عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته ؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة ؛ بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة». انتهى كلامه رحمه الله.

٢- اختلف الناس في إثبات الكرامات الحسية ونفيها على فرق :

أ - قوم أنكروها بالكلية، وقولهم مغالاة يردها الواقع فكم ثبت من كرامات أسانيدها صحيحة والعقل السليم لا يردها.

ب - قوم أثبتوها لكل من خرقت له العادة من المشعوذين والدجالين، فظنوهم أولياء لله حين رأوهم يدخلون النار فلا يحترقون، واغتروا بما عندهم من الشعبذة.

جـ - قوم أثبتوها لمن ظنوا صلاحهم في الدين ولكن غالوا حتى جعلوا للولي سلطاناً في التحكم في مقادير العباد وتصرفاتهم، فيأمر وينهى ويشرع كما ظنت الصوفية في الأقطاب.

د - أما أهل السنة والجماعة: فأثبتوها لمن يستحقها فلا كرامة إلا لأهل الإيمان الحق، وما أجمل ما قاله الشافعي: «إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي على الماء فلا تصدقوه حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة» يقصد رحمه الله ألا يغتر الناس بسحر السحرة وشعبذة الدجالين الذين يدعون أنهم أولياء لله، فلا تثبت كرامة لأحد حتى يكون من أهل الإيمان.

قال شيخ الإسلام: «والخوارق قد تكون مع الدين، وقد تكون مع عدمه أو فساده أو نقصه، فقد عرف لأولياء الشيطان خوارق وأحوال مثل حال «**عبد الله بن صَيّاد**» الذي ظهر في

زمن النبي ﷺ، وكان بعض الصحابة قد ظن أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال؛ لكنه كان من جنس الكهان، قال النبي ﷺ قد خبأت لك خبأ قال: الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سورة الدخان فقال له النبي ﷺ: «**اخسأ فلن تَعْدُوَ قَدرَك**» يعني إنما أنت من إخوان الكهان؛ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيَّباتِ بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إن الملائكةَ تنزِلُ في العَنانِ، وهو السحاب، فتذكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السماء، فتسْتَرِقُ الشياطينُ السمعَ؛ فتُوحيهِ إلى الكهّانِ فيكذبونَ معها مائةَ كِذبةٍ مِنْ عندِ أنفُسِهِم**».

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما النبي ﷺ في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال النبي ﷺ: «**ما كنتُمْ تقولونَ لِمثْلِ هذا في الجاهليةِ إذا رأيْتُموه؟** قالوا كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم، قال رسول الله ﷺ: «**فإنه لا يُرمَى بها لموتِ أحدٍ ولا لحياتهِ؛ ولكنّ ربَّنا تباركَ وتعالى إذا قضَى أمراً سبَّحَ حملةُ العرْشِ، ثم**

سبَّحَ أهلُ السماء الذين يَلُونَهم، ثم الذين يَلُونَهم، حتى يبلُغَ التسبيحُ أهلَ هذه السماء، ثم يَسألُ أهلُ السماء السابعةِ حملةَ العرشِ ماذا قال ربُّنا؟ فيخبرونهم، ثم يستخبِرُ أهلُ كلِّ سماءٍ حتى يبلُغَ الخبرُ أهلَ السماء الدنيا، وتخطَفُ الشياطينُ السمعَ فيرمون، فيقذِفونَه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهِه فهو حقٌّ، ولكنهم يَزيدون».

وفي رواية قال معمر قلت للزهري: أكان يُرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم ولكنها غلظت حين بعث النبي ﷺ.

و«**الأسود العنسي**» الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه، حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه.

وكذلك «**مسيلمة الكذاب**» كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيَّباتِ ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل «**الحارث الدمشقي**» الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان، وادعى النبوة وكانت الشياطين يُخرِجون رجليه من القيد، ويمنعون السلاح أن ينفذ فيه، ويسمع تسبيح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يري الناس رجالاً وركباناً

على خيل في الهواء ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جناً، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسمِّ اللهَ، فسم الله فطعنه فقتله.

وهكذا أهل «الأحوال الشيطانية» تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيُطلقه، فيقول له النبي ﷺ: «**ما فَعَلَ أسيرُك البارحةَ**» فيقول: زعم أنه لا يعود، فيقول: «**كَذَبك وأنه سيَعودُ**» فلما كان في المرة الثالثة. قال: دعني حتى أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال: «**صدقك وهو كذوب**» وأخبره أنه شيطان. ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها، مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أو يحضر سماع المكاء والتصدية فتنزل عليه الشياطين

وتتكلم على لسانه كلاماً لا يعلم وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، ويلبسه، ويتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال، ولهذا قد يضرب المصروع، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي، ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء لأن الضرب كان على الجني الذي لبسه.

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، ومنهم من يطير بهم الجني إلى مكة أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته فلا يحج حجاً شرعياً؛ بل يذهب بثيابه، ولا يحرم إذا حاذى الميقات، ولا يلبي ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت، ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمي الجمار، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته، وهذا ليس بحج، «ولهذا رأى بعضُ هؤلاء الملائكةَ تكتُبُ الحُجَّاجَ» فقال ألا تكتبونني؟ فقالوا: لستَ من الحجاج. يعني حجاً شرعياً.

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه، حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار، فإذا حصل وجود رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط، كما جرى هذا لغير واحد.

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت سواء أكان ذلك الحي مسلماً أم نصرانياً أم مشركاً، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث؛ فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك على صورته، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين.

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان، ويقول له: أنا الخَضِرُ، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى، وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت، ويقضي الديون، ويرد الودائع، ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل على زوجته ويذهب،

وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما تصنع كفار الهند، فيظنون أنه عاش بعد موته.

ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحداً يغسلني فأنا أجيء وأغسل نفسي، فلما مات رأى خادمه شخصاً في صورته، فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله ـ أي غسل الميت ـ غاب، وكان ذلك شيطاناً، وكان قد أضل الميت، وقال: إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضاً في صورته ليغوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك.

ومنهم: من يرى عرشاً في الهواء وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول: أنا ربك فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول.

ومنهم: من يرى أشخاصاً في اليقظة يدّعي أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين، وقد جرى هذا لغير واحد». انتهي كلامه رحمه الله.

قلت فلا يحكم علي شخص بأنه ولي للرحمن حتى يرى حاله وقد تقدم قول الشافعي رحمه الله: «لو رأيتم الرجل

يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تصدقوه حتى على الكتاب والسنة».

والفارق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان يعرفه كل عاقل فأولياء الرحمن يفعلون الخير ويحثون الناس عليه، ويتركون الشر وينهون الناس عنه، وهم كذلك أبعد الناس عن الشهرة والرياء وطلب السمعة، بل يرون أنفسهم مقصرين في حق الله مستحقين للعذاب، فهم أطهر الناس قلوباً وأطهرهم أجساداً، فيحافظون على الوضوء والطهارة والغسل، وعلى العكس من ذلك كله أولياء الشيطان فهم أظلم الناس قلباً وقالباً وأبعدهم عن الطاعات والخير وإن جرت على أيديهم خوارق وأحوال.

قال شيخ الإسلام:

«فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير الله فيستغيث

بالمخلوقات ويتوجه إليها، أو يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة، أو يأوي إلى المقابر، ولاسيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصاري أو المشركين أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل؛ وقال ابن مسعود: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل». انتهى كلامه رحمه الله.

٣- ضلت أفهام بعض الصوفية فظنوا أن الولاية أفضل من النبوة، ولبّسوا على الناس فقالوا: ولايته أفضل من نبوته وأنشدوا:

مـقـامُ النُبُـوّةِ في بـرزخٍ فويقَ الرسولِ ودونَ الوَلِيّ

وقالوا نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من نبوته، وهذا ضلال بل كفر، فقد أجمع المسلمون على أن النبي خير من أي ولي، وقد علم من الدين بالضرورة كون النبي أو الرسول أفضل من غيره، وكذلك ضلت الشيعة فجعلت للولي من السلطان ما ليس لرسول، بل نسبوا له صفات الإلهية من التحكم في الكون والعلم بأسراره، واتبعهم على ذلك فئام من الصوفية، وقد قال الخمينى في كتاب «الحكومة الإسلامية»: «للإمام عندنا درجة سامية تخضع لولايتها وسيطرتها كل ذرات الكون، ومن ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملَكٌ مقرب ولا نبي مرسل». وهذا من الكفر أيضاً واتبع الشيعةَ على ذلك غلاةُ الصوفية فاعتقدوا في الأقطاب أنهم يتحكمون في الكون، وهذا كله كفر وضلال.

٤- هذا الحديث يدل على أن الولاية وهبية وكسبية معاً بمعنى أن العبد لو تقرب إلى الله بالنوافل مع الفرائض واجتهد في طاعة الله أعطاه الله الولاية ففعل العبد للطاعة كسب العبد، والتوفيق لفعل الطاعة والمداومة عليها وقبولها هبة الرب وفضله

ومنته على عبده؛ وأما النبوة فليست كسببه فلا يقال: لو اجتهد فلان وتعبد لنال النبوة، بل هي فضل الله يختار لها من يشاء ممن علم صلاحه لهذه المهمة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقد ضلت بعض الفلاسفة فزعموا أن العبد لو تجرد وزهد واختلى وتعبد لاكتسب النبوة بفضل العقل الفعال، وهذا ضلال مبين بل كفر بين.

٥ - تفاضل الأولياء ليس في المقام الأول بأعمال الظاهر من صلاة وقيام وصيام ولكن بما في القلوب، قال عمر: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر» وقال بعض السلف: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة أو بكثرة صيام ولكن بشيء وقر في القلب وصدقه العمل» وقال ابن مسعود لأصحابه: «لأنتم أشد اجتهاداً من أصحاب رسول الله ولهم خير منكم، قالوا له: ولِمَ؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا وأرغب في الآخرة».

وقال أبو الدرداء: «لئن حلفتم لي أن فلاناً أزهدُكم لأحلفن لكم أنه خيركم» وقال النبي ﷺ عن أويس القرني: «**أفضل التابعين رجل يقال له أويس القرني**»، مع أن كثيراً من

التابعين كانوا أكثر منه علماً، وقال عمر بن عبد العزيز «أفضل العبادة الورع عما حرم الله» فبقدر ما قام في قلب العباد من توكل وإخلاص ويقين ومحبة وصبر وشكر ورضا وزهد وورع يكون التفاضل بينهم ولكن لهذه العبادات القلبية آثاراً تظهر على أعمال البدن، فالمهم هو تنميةُ وتثميرُها أعمالِ القلوب، نعمْ، للإكثار من الأعمال الظاهرة أثر في تنمية أعمال القلب، ولكن لابد من مراقبة القلب حتى لا تصبح الأعمال الظاهرة مجرد حركات وأفعال بدن لا روح فيها ولا خشوع.

٦ - **قال شيخ الإسلام:** «ليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً، بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ عدا أهل البدع والفجور، فيوجدون في أهل القرآن، وأهل العلم وأهل الجهاد، ويوجدون في التجار والصناع والزراع». انتهى كلامه رحمه الله.

٧- **وقال أيضاً رحمه الله:** «ليس من شرط ولي الله أن يكون معصوماً: لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه

بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به وهي مما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله؛ فإن الله سبحانه تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه. والناس في هذا الباب «ثلاثة أصناف» طرفان ووسط؛ فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدّث به قلبه عن ربه وسلّم إليه جميع ما يفعله، ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهداً مخطئاً، وخيار الأمور أوساطها وهو أن لا يُجعَلَ معصوماً ولا مأثوماً إذا كان مجتهداً مخطئاً، فلا يتبع في كل ما يقوله ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده، وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**قد كان في الأُمَمِ قبلَكم مُحَدَّثونَ فإن يَكُنْ في أُمَّتي أَحَدٌ فَعُمَرُ**» وروي الترمذي: «**إن الله ضَرَبَ الحقَّ على لسانِ عُمَرَ وقلبِهِ**» وقال ابن عمر: «ما قال عمر في شيء: إني لأراه

كذا إلا كان كما يقول»، ومع ذلك كان يخطيء أحياناً فأنكر على النبي صلح الحديبية، وقال ما ذكرت ذلك إلا عملت أعمالاً وأنكر موت النبي حتى خطب أبو بكر الناس، وأنكر على أبي بكر قتال مانعى الزكاة ثم وافقه، فليس لأنه وليٌّ لله ومحدَّثٌ يقبل منه كل ما يقوله ويسلَّمُ له وإن خالف الكتاب والسنة، أما الأنبياء والرسل فهم وحدهم الذين يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو مردود وإن قال به وليٌّ من الأولياء». انتهي كلامه رحمه الله بتصرف.

٨- من معتقدات أهل السنة أن الوليَّ الذي تحدث على يديه الكرامة عبد من عباد الله لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا يعلم الغيب النسبي إلا بإذن الله، وأما الغيب المطلق «الغيبيات الخمس التي اختص الله بعلمها» فلا يعلمها إلا الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾. فما أخبر به الرسل من الغيب المطلق على قسمين:

أ - ما أخبروا به على وجه الجزم والقطع غير معلق بالمشيئة كأمور الآخرة وأشراط الساعة، ولكنهم لا يخبرون بكل تفاصيله ولا كيفية حدوثه فلا يخرج عن كونه غيباً، فنحن نؤمن قطعاً بخروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج وسائر أشراط الساعة وما في يوم القيامة، ولكن هذا العلم لا ينافي أن الله اختص بعلم الغيب لأننا لا نعلم تفاصيل ذلك ولا وقت حدوثه، ولذا من جزم بأن عيسى عليه السلام ينزل يوم كذا فهو كاذب ضال.

ب- ما علمه بعض الرسل على وجه التفصيل: كعلم المَلَك الذي وُكِّلَ بالجنين، فيكتب وهو في بطن أمه عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد، وكقول الرسول ﷺ عن قتلى بدر من المشركين: «**هذا مَصْرَعُ فلانٍ غداً إن شاءَ اللهُ**» فهذا معلق بالمشيئة، فإن شاء الله أمضاه وإن شاء غيّرَ ذلك وقع ما شاء الله، فلا يخرج أيضاً عن كونه غيبًا استأثر الله به.

٩- اختلف أهل السنة في بعض المؤمنين هل هم أولياء أم أنبياء، كمريم والخضر، والخلاف فيهما قوي، وكأم موسى وحواء، والخلاف فيهما ضعيف، والراجح أنهما وليّتانِ وليستا نبيّتينِ، فأما مريم فالعلماء في نبوتها على قولين:

أ - هي نبية وهو ما رجحه ابن حزم، وقال القرطبي والقاضي عياض: هو قول الجمهور لتلقيها الخطاب من روح القدس، وقالوا: هذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ فالرسول لا يكون إلا رجلاً، وأما النبي فلا تدل الآية على المنع من كونه امرأة.

ب- هي ولية وليست نبية: وهو الظاهر من قوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ فالمقام مقام ثناء عليها فلو كانت نبية لذكر الله ذلك، وقال النووي وابن تيمية: هو قول الجمهور، ورجح الشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ التوقف وعدم الجزم.

- وأما الخضر فقال البعض بنبوته لقوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ فالرحمة هي النبوة لقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ قاله رداً على مشركي قريش لما قالوا هلا كان فلان هو النبي بدلاً من محمد ﷺ، فأخبر الله أن النبوة رحمة الله يعطيها من يشاء، وهذا ترجيح الشنقيطي، وقال البعض: هو ولي فقط، وقالوا لا دليل صريحاً على نبوته، ورجح الشيخ ياسر التوقف أيضاً في نبوته.

قوله في الحديث: «**حتى أحبه**» رد على الأشاعرة حيث أنكروا صفة محبة الله، وأنكروا تعلق أفعال الله بالمشيئة، فقوله «**أُحِبّ**» يدل على وجود صفة المحبة، بل وعلى تفاضل هذه المحبة، صفة التفاضل في المحبة يدل عليها: «**أحب إليّ**» وقوله: «**فإذا أحببته**» يدل على تعلق أفعال الله بالمشيئة يفعل إذا شاء ولا يفعل إذا شاء سبحانه وتعالى.

- وفيه كذلك رد على الجهمية والأشاعرة الذين أنكروا صفات الله فقوله في الحديث: «**إن الله قال**»، «**حتى أحبه**» يثبت لله صفتي الكلام والمحبة، وهما صفتان يليقان بالله ولا يشبهان صفات المخلوقين.

قوله في الحديث: «**وإن سألني لأعطينه**» أكبر دليل علي الانفصال والفارق بين الرب والعبد، فالسائل غير المسؤول والمعطي والمستعيذ غير المستعاذ به، وعليه فقول الله: «**كنتُ سمعَه**» ليس معناه أن الله يَحِلُّ أو يتّحِدُ بالعبد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. بل معناه على ما ذكرنا من مباركة الله لوليه في أعضائه وحواسه، وانظر إلى الفاتحة وقولِ العبد: «إياك نعبد» فهل يعبد المرء نفسه؟! فذات الرب غير ذات المخلوق لا ينفي ذلك إلا

مكابر، وأما ما ورد في بعض روايات هذا الحديث من زيادة «فيكون عبداً ربانياً يقول للشيء كن فيكون» فهي باطلة لا تصح عن رسول الله فالعبد عبد والرب رب وأما كون الولي لله يأمر المخلوقات فتأتمر بأمره ويقول للشيء كن فيكون فهذا لا مانع من حدوثه أحياناً لبعض الأولياء، فربما قال الولي تضرعاً ودعاءً وسؤالاً لله كن فيكون، فقد قال الرسول لما رأى سراباً: «**كُنْ أبا ذَرّ**» فكان، وقال: «**كُنْ أبا خَيْثَمَةَ**» لسراب آخر فكان أبا خيثمة، وها هو سفينة مولى رسول الله يلقى أسداً في صحراء فيقول له: «أنا سفينةُ مَوْلى رسولِ اللهِ فَدُلَّني على الطريقِ، فدلَّه الأَسَدُ».

- فإن قيل: فما بال الصالحين يسألون أحياناً ولا يستجاب لهم؟ قلنا: العطاء قد يكون بالمنع، فالعبد يسأل ولا يعلم أين الخير، فربما ظن العبد الخير في الشر، والله أعلم بعواقب الأمور، وربما أخر الله الإجابة حيناً ما، وربما ادخرها ثواباً في الآخرة، فالعبد لا يشقى أبداً مع الدعاء وكل سائل من عباد الله له عطاء فكيف بالأولياء؟!

- ولما كانت الأنبياء قد كملت ولايتهم لله كانت لهم دعوة مستجابة يجيبهم الله يقيناً على حسب ما أرادوا، وهذا

خاص بالأنبياء، ففي الحديث: «**ما مِنْ نبيٍّ إلا وله دَعْوةٌ مستجابةٌ فتَعَجَّلَ كُلُّ نَبيٍّ دعوتَه، وادّخَرْتُ دَعْوَتي شفاعةً لأُمتي يومَ القيامةِ**» فالأنبياء كبقية البشر يدعون الله ويرجون إجابته، ولكن لكل واحد منهم دعوة خاصة يدعو بها فيستجيب الله له يقيناً.

فوائد:

أ - قوله: «**وإن سألني لأعطينّه**» يدل على أن السؤال لا يكون إلا لله، ولذلك قال: «**وإن سألني**» ولم يقل «وإن سأل»، ويدل على هذا المعنى قول النبي في حديث آخر: «**إذا سألْتَ فاسألِ اللهَ وإذا استعنْتَ فاستعِنْ باللهِ**».

فالأصل في سؤال المخلوق أنه غير مشروع ولكن قد يشرع في حالات:

١ - لو سأل المؤمن أخاه الصالح أن يدعُوَ له بأمور الآخرة شُرِعَ، فقد كان الصحابة يسألون الرسول أن يدعوَ لهم، فإن قيل: هذا خاص بالرسول ﷺ، ولا يشرع سؤال غيره الدعاء؟ قلنا: قد قال رسول الله ﷺ لأصحابه عن أُوَيْسٍ القَرَني: «**مُرُوهُ فلْيستغفرْ لكم**».

٢- لو سأل المؤمن أخاه العون فيما يقدر عليه وانتوى بذلك أن ينال أخوه الثواب فهذا أيضاً مشروع، فقد سأل الرسول ﷺ عائشة أن تُحضر له الخمرة ليصلي عليها، وسأل ابن مسعود أن يحضر له أحجاراً ليستنجي بها، وذلك لينالوا ثواب خدمته، وما أجمل ما ورد عن محمد بن واسع أنه قال لابنه يوماً عند أذان المغرب وكان صائماً قال له: «يا بني أحضرْ لي ماءً أفطرْ عليه لتنال ثواب صيامي».

٣- لو سأل المؤمن أخاه أن يدعوَ للمسلمين عموماً بأمور الدنيا والآخرة شرع أيضاً، وكذلك لو سأل المؤمن أخاه لنفع المسلمين، كأن يطالب الأغنياء بالمال لينفقه على الفقراء، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ قال بعض المفسرين في قوله: ﴿ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ قال: «يحثُّون الأغنياء على النفقة في سبيل الله».

ودخل قوم مجتابى النمار[1] مسجد رسول الله ﷺ وسألوه الصدقة، فلم يجد، فقام ﷺ فخطب الناس وحثهم

---

(١) ثيابهم ممزقة.

على الصدقة، ودخل رجل المسجد على عهد رسول الله ﷺ بعد انتهاء صلاة الجماعة فقال الرسول لأصحابه: «**من يتصدق على هذا؟**».

ب- والطلب غير مشروع على أقسام أيضاً:

١- أن يسأل المرء أخاه الدعاء بأمور الدنيا محضاً، فهو وإن كان جائزاً إلا أنه خلاف الأولى، ففي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب «هم الذين لا يرقون ولا يسترقون»، والاسترقاء هو طلب الرقية من الغير، فجعل طلبهم للرقية من الغير منافياً لكمال التوكل.

٢- أن يطلب المسلم من ربه الدنيا على وجه التفصيل كأن يقول: «اللهم ارزقني الزواج من فلانة» أو: «ارزقني سكنى الشقة الفلانية» ففي الحديث أن أحد الصحابة دخل على ابنه وهو يقول: «اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الداخل إلى الجنة» فقال له: يا بني حَسْبُك أن تقول: «اللهم أدخلني الجنة وأجرني من النار»، فإني سمعت الرسول ﷺ يقول: «**سيكونُ في أُمّتي قومٌ يعْتَدونَ في الدعاءِ والطُّهورِ**» رواه مسلم، فإذا كان الدعاء بتفاصيل الآخرة اعتداءً غير مشروع فكيف بطلب تفاصيل الدنيا؟؟ فالكمال أن يطلب

المؤمن الدنيا إجمالاً لا تفصيلاً فيقول: «اللهم ارزقني» أو يقول: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وينوي بحسنة الدنيا ما يريده من أمور الدنيا، فقد كان أكثر دعاء النبي: «**ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النارِ**»، وكان أنسٌ إذا دعا دعا بها وإلا جعلها في دعائه. رواه مسلم. وتأمل قول موسى لما طلب من الله الرزق: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ولم يطلب تفصيلاً، وتأمل دعاء عيسى حين طلب المائدة من الله كما قال تعالى عنه: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فقال: «ارزقنا»، بل جعل المقاصد الدينية من المائدة في أول دعائه: وهي كونها عيداً لهم ديناً وآيةً وعبرة، وجعل المقصود الدنيوي من رزق الله لهم بطعام عليها في آخر دعائه، وذلك لكمال علمه ﷺ بربه، على عكس أصحابه حيث قالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾، فقدموا المقصود الدنيوي وهو الأكل على المقصود الديني وهو اطمئنان القلب، وذلك لخلل في كمال توحيدهم وإيمانهم، والله المستعان.

قال ابن حجر رحمه الله: «في الحديث أيضاً أنه من أَتَى بما وجب عليه وتقرَّبَ بالنوافل لم يُرَدَّ دعاؤه لوجود هذا الوعد الصادق المؤكد بالقسم، فإن قيل قد دعا جماعة من العباد والصلحاء وبالغوا ولم يجابوا، فالجواب بأن الإجابة تتنوع: فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع ولكن يتأخر لحكمة، وتارة قد تقع الإجابة ولكن بغير عين المطلوب، حيث لا يكون في المطلوب مصلحة ناجزة، وفي الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منه، وفي الحديث كذلك أن العبد ـ ولو بلغ أعلى الدرجات حتى صار محبوباً لله ـ لا ينقطع من الطلب من الله لما فيه من الخضوع له وإظهار العبودية». انتهى كلامه رحمه الله بتصرف.

وقال أيضاً رحمه الله: «تمسّكَ بقوله تعالى: «**كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به وبصرَه الذي يُبْصِرُ به... إلخ**» الاتحاديةُ والقائلين بالوحدة المطلقة، ولا مُتَمَسَّكَ لهم، لقوله في بقية الحديث: «**ولئن سألني**»، «**ولئن استعاذني**» فإنه كالصريح في الرد عليهم». انتهى كلامه، قلت: وذلك لدلالة هذين اللفظين على وجود سائل غير المسؤول ومستعيذ غير المستعاذ به، فالرب غير العبد

قوله في الحديث: «**ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه**» وقع في حديث أبي أمامه: «**وإذا استنْصَرَ بي نَصَرْتُه**» وفي حديث أنس: «**نَصَحَني فَنصَحْتُ له**».

- وفي هذا الردّ على بعض المتقدمين الذين قالوا: الاستعاذة بالله تنفع من شياطين الجن، ولا ينفع مع شياطين الإنس إلا المداراة، **فقوله**: «**ولئن عاذ بي لأعيذنه**» عامّ يشمل شياطينَ الإنس والجن، وقد قال موسى: ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ فصرف الله عنه فرعون وكيده، فانظر إلى الملأ يقولون لفرعون: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾ فانظر كيف صرف عن موسى والمؤمنين من أتباعه، بدلاً من أن يقول: «سأقتل موسى ومن آمن معه» فصرف عن ذلك.

قوله في الحديث: «**تَرَدُّدِي عن نفْسِ عبدي المؤمنِ**» دليل على إثبات صفة التردد لله، وقد رد البعض هذه الزيادة وقال: هي من رواية شريك وله أوهام. والراجح أنها صحيحة السند، ويكفي تصحيح البخاري لها، بل هي صحيحة المعنى، فليس بممتنع إثباتها لله، فالتردد نوعان:

أ - التردد الناشيء عن الجهل بعواقب الأمور فهذا نقص ينزه الله عنه.

ب - التردد الناشيء عن اجتماع إرادتين مختلفتين فهذا لا نقص فيه، وهو ما أثبته الحديث لله.

قال شيخ الإسلام: «إن الله ليس كمثله شئ في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فالتردد تارة يكون لعدم العلم بالعواقب وهذا يتنزه الله عنه، وتارة لما في الفعلين من المصالح والمفاسد فيريد الفعل لما فيه من المصلحة، ويكرهه لما فيه من المفسدة لا لجهله وهذا لا نقص في إثباته لله، ومَثّل هذا كإرادة المريض لدوائه الكريه لما في تناوله من المصلحة، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس من هذا الباب، وقد قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾، وفي الحديث: «**حُفَّتِ النَّارُ بالشَهَواتِ وحُفَّتِ الجَنَّةُ بالمكارِهِ**» رواه مسلم، فالله سبحانه قضى بالموت، فكل ما قضى به كوناً فهو يريده ولابد منه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده المؤمن، وهي المساءة التي تحصل بالموت، فصار الموت مراداً لله من وجه ومكروهاً له من وجه، وهذا حقيقة التردد وهو

أن يكون الشيء الواحد مراداً من وجه ومكروهاً من وجه، وإن كان لابد من ترجح أحد الجانبين كما ترجح إرادة الموت لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت عبده المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته». انتهى ملخصاً.

قوله في الحديث: **«يكرهُ الموتَ»**. فيه أن جبِلَّةَ النفس كراهية الموت ومحبة الحياة، وقد قالت عائشة لرسول الله: «كُلُّنا يكْرَهُ الموتَ» ولا ذم في هذا، إنما الذم في الحب الذي يدعو إلى ترك الصالحات وفعل المعاصي اتباعاً لشهوات الدنيا بحيث يفضل العبد الدنيا على الآخرة، كذلك يذم العبد لو تعلق قلبه بالدنيا فصار يحب ويعادي على أساس الدنيا لا على أساس الدين، وكذلك لو عاش العبد غافلاً عن أمور الآخرة غير مستعد لها فإنه كذلك يذم، بل لو أحب الدنيا من أجل شهواته المباحة فإن حاله حال ناقص، وقد قال بعض السلف عند موته: «اللهم إنك تعلم أني ما كنت أحب الدنيا لغرس الأشجار وجري الأنهار، وإنما كنت أريد البقاء لصيام القائظات وقيام الليالي الباردات ومزاحمة العلماء بالركب في المجالس».

- وفيه كذلك أن الله قد يقدر على عبده المؤمن ما تكرهه نفسه، ويترتب على ذلك من الخير أضعاف ما ساء نفسه من هذا التقدير، فالمؤمن يكره الموت طبعاً لما فيه من فراق الأحبة والأهل والأصدقاء، ولكن يترتب عليه من دخول الجنة والنعيم ومجاورة الصالحين ما هو أفضل للمؤمن، فالدنيا دار تعب ونصب، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴾ والآخرة دار السلام والأمان، قال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾، ولذا يفرح المؤمن بالموت إذا بشره الله بالجنة عند موته، وقد ورد عن بعضهم أنه قال عند موته: «حبيب جاء على فاقة»، وقال آخر: «اليوم نلقى الأحبة محمداً وصحبه»، فالله رحيم ودود يقدر على عبده المؤمن بعض الأقدار المؤلمة ويُرتّب عليها من الخير ما لو علمه المؤمن لرضي بأقدار الله، وفي الحديث: «**لَيَوَدَنَّ أهلُ العافيةِ أن لو قُرِضَتْ جلودُهم بالمقاريضِ لما يرونَ من ثوابِ أهلِ البلاءِ يومَ القيامةِ**».

- وفيه كذلك تحذير للعصاة من مغبة معاصيهم، فإذا كانت هذه كراهية الله للموت الذي يكرهه المؤمن طبعاً فكيف تكون كراهية الله للمعاصي التي يكرهها المؤمن شرعاً؟!

فليحذر العبد من الوقوع في المعاصي صغيرها وكبيرها، وكلما زاد جرم المعصية زادت كراهية الله لها.

- وفيه كذلك تصبير للدعاة لما يرونه من قتل آلاف المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فهذا بعين الله، وغضب الله لهم أعظم من غضب المؤمنين، وقد قال ابن عمر: «والله لزوال الكعبة أهون عند الله من قتل نفس المؤمن بغير حق» فإذا رأى المؤمن كثرة الظلم والقتل الواقع على المسلمين أيقن بقرب زوال دولة الكفر والظلم.

- وفيه كذلك تحذير للظلمة والكفرة من إيذاء المؤمنين، فالله يحب المؤمنين ويغضب لغضبهم، وانظر إلى أبي بكر لما قال لبلال وغيره من الصحابة لما عرّضوا بأبي سفيان فقال لهم: «أتقولون هذا لسيّد قريش وشيخِها» فقال له الرسول: «**ارْجعْ إليهم فواللهِ لئن كنتَ أغضبتَهمْ لقد أغضَبْتَ ربَّكَ**» وهو أبو بكر فكيف بغيره!! بل تأمل قول نوح لما سأله الملأ من قومه أن يطرد ضعفاء قومه الذين آمنوا معه فقال: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾، فمع أنه رسول الله وصاحب الدعوة الطويلة ومع ذلك فإنه لو ظلم ضعفاء

المؤمنين وطردهم لغضب الله عليه ولضاع عمله!! فكيف بالتعذيب والسجن وليس مجرد الطرد!! فالواجب الحذر الشديد من إيذاء المسلم.

قال الحافظ ابن حجر: «تمسك بهذا الحديث بعض الجهلة من أهل التخلي والرياضة فقالوا إذا كان العبد محفوظاً مع الله كانت خواطره معصومة من الخطأ، وتعقب ذلك أهل التحقيق من أهل الطريق فقالوا: لا يلتفت إلى شيء إلا إذا وافق الكتاب والسنة، والعصمة إنما هي للأنبياء ومن عداهم فقد يخطئ، فقد كان عمر ﷺ رأسَ الملهَمِينَ، ومع ذلك فكان ربما رأى الرأي فيخبره بعض الصحابة بخلافه فيرجع عنه، وأما من بالغ منهم فقال: حدثني قلبي عن ربي. فإنه أشد خطأ فإنه لا يأمن أن يكون قلبه إنما حدثه عن الشيطان. والله المستعان». انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وفي الحديث مزيد عناية الله بأوليائه حيث يوفقهم للخير ويعينهم عليه ثم إذا استقاموا زادهم هدى وتقى، فتفضل عليهم في الأولى والآخرة، فهو الذي يوفقهم لفعل الفرائض والنوافل، ومع ذلك يحبهم إذا استقاموا عليها، بل

ويبشرهم في الدنيا قبل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ وفي الحديث: «**لم يبْقَ منَ النبوةِ إلا المبشِّراتُ**، قالوا: وما المبشِراتُ؟ قال: **الرؤيا الصالحةُ يراها المؤمنُ أو تُرَى له**»، وكلما بعد الزمن عن زمان النبوة وكَثُرَتِ الفتن كَثُرَتِ الرُؤَى الصالحة، ففي الحديث: «**إذا تقارَبَ الزمانُ لم تَكَدْ رؤيا المؤمنِ ان تُخطئ**»، وقد أمر الله موسى وهارون أن يبشرا قومهما زمن فتنة فرعون وزيادة سطوته، إذ المبشرات تثبّتُ المؤمنين وتزيد من قوتهم وصلابة إيمانهم، فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين..